الفعل الحضاري للكتابة
قراءة في مقدمة كتاب الحيوان – للجاحظ

د. محمد عادل محمد
جامعة الموصل / كلية التربية للعلوم الإنسانية

تاريخ الاستلام تاريخ القبول
٢٠١٢/١٢/٢٥ ٢٠١٣/٣/٦

الملخص

يتفق الباحثون على أهمية قضية الكتابة في مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ اتفاقا كبيرا وهذا ما جعل دراسة هذه القضية ومناقشتها مبحثا مهما في أغلب الدراسات التي تناولت تراث الجاحظ بالدراسة والتحليل ، وهذه القراءة تمثل مقاربة لقضية الكتابة في مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ، وهي قراءة تحليلية ناقدة للمقدمة على المستويين السلبي والايجابي بقدر تعلقها بقضية الكتابة، ومن ثم فهي قراءة تسعى إلى إظهار جهود الجاحظ في مجال السعي إلى جعل الكتابة وسيلة أولى تعتمدها الحضارة العربية في حفظ تراثها ، وذلك لجعل ذلك التراث قادرا على التأثير الفعال في الحضارات الأخرى .

المقدمـــة

تبرز الكتابة* بوصفها نسقا مهيمنا في مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ، الذي عمل على الدفع بها إلى المرتبة الأولى ضمن شواغله في مقدمته من صفحتها الأولى [١] التي يبدأها بفقرات طويلة في الرد على أحد خصومه ممن عابوا في البداية كتب الجاحظ ، ثم أوصله الغلو إلى أن يعيب الكتاب والكتابة على نحو عام ، ودفاع الجاحظ عن كتبه ضد من يعيبها يجعل القارئ يظن أن القضية تمثل نزاعا شخصيا بينه وبين خصم مفترض له ، ويشكل الابتداء بهذه الطريقة مدخلا ذكيا لطرح الأفكار العامة الكبيرة ، وتقنية ذات قدرة كبيرة على جذب القارئ وحثه على مواصلة القراءة مدفوعا بالرغبة في معرفة أبعاد هذه الخصومة وأطرافها وحجج كل منهم ، فيقول الجاحظ لخصمه هذا : "ثم لم أَرَكَ رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لي بعينه حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ وكيفَ تصرفَتْ بها الوجوه وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم"[٢]. وهنا تبرز نقطة التحول في كلامه من الدفاع الشخصي عن كتبه إلى الموضوع الأساس الذي نرى أن كل ما تقدم كان تمهيدا للوصول إليه وهو موضوع الدفاع عن الكتابة وإبراز فاعليتها لا على صعيد الأدب فحسب بل على صعيد أوسع يتمثل في فعلها الحضاري وإسهامها في حفظ تراث حضارات الأمم عبر أجيالها المتعاقبة ، فضلا عن نشر ذلك التراث وإيصال أثره إلى الحضارات الأخرى .

والجاحظ بارع في التقاط الخيوط الدقيقة التي تشكل في نهاية المطاف النسيج العام للقضية التي يتصدى لها ، وقد جاء حكمنا هذا انطلاقا من القراءة المتأنية لمقدمته التي تخلق لدى القارئ قناعة بأن فقراتها مرتبطة بعلاقة عضوية تجعل بعضها مفضيا إلى بعضٍ، على الرغم من أن تلك الفقرات قد تبدو متباعدة للوهلة الأولى ، لذا نراه يتجه في مقدمته عدة وجهات تصب في خدمة هدف المقدمة الأهم المتمثل في الدعوة إلى " أن تقوم الكتابة والكتاب بديلا حضاريا عن اللفظ والذاكرة "[٣] ومن أبرز ما وظفه في المقدمة من موضوعات لخدمة هذا الهدف :

١. **اطراء الكتاب وذكر مزاياه التي عد منها :**

أ. **المزايا الاجتماعية :** يستعرض الجاحظ هنا مزايا ذات طابع اجتماعي يؤلف بينها سعي الإنسان الفطري للحصول على الصحبة الطيبة والنافعة ، والأفضل في هذا الميدان عند

---

* الكتابة بوصفها القسيم المقابل للمشافهة .

(١) كتاب الحيوان: ١ / ٣ .

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣٨ .

(٣) التفكير البلاغي عند العرب ، حمادي صمود : ١٣٨.

الجاحظ هو الكتاب فهو " نعم الجليس والعُدَّة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل"(١)، وأسباب أفضلية الكتاب من الناحية الاجتماعية تتمثل في انه بداية قادر على ان يجمع لقارئه بين الأضداد لأنه "وعاءٌ مُلِئَ علماً وَظَرْفٌ حُشِي ظُرْفاً وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً إنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل وإن شئت كان أعيا من باقِل وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادرِه وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائده وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه وإن شئتَ أشجَتْك مواعظُه وَمَنْ لَكَ بِوَاعظ مُلْهٍ وبزاجرٍ مُغرٍ وبناسكٍ فاتكٍ وبناطقٍ أخرسَ وببارد حارّ ... ومَنْ لكَ بطبيب أَعرابيّ وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْديّ وبفارسي يُونَانيّ وبقَديمٍ مولَّد وبميِّتٍ ممتَّع وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخِر والناقص والوافر والخفيَّ والظاهر والشاهدَ والغائبَ"(٢)، أي أنه يوفر لقارئه خليطا اجتماعيا متنوعا ليس من اليسير الحصول عليه من خلال التواصل الاجتماعي العادي، ويلوم خصمه على مهاجمته الكتب فيقول : "وعبتَ الكتابَ ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ ولا خَليطاً أنصفَ ولا رفيقاً أطوعَ ولا معلّماً أخضعَ ولاصاحباً أظهرَ كفايةً ولا أقلَّ جِنَايَةً ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً ولا أحفَلَ أخلاقاً ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً ولا أقلَّ غِيبةً ولا أبعدَ من عَضيهة ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً ولا أقلّ تصلُّفاً وتكلُّفاً ولا أبعَدَ من مِراءٍ ولا أَتْرَك لشَغَب ولا أزهَدَ في جدالٍ ولا أكفَّ عن قتالٍ من كتاب ولا أعلَمُ قريناً أحسنَ مُوَافاةً ولا أعجَل مكافأة ولا أحضَرَ مَعُونةً ولا أخفَّ مؤونة "(٣)، ثم يقول في موضع آخر:"ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك ويدعُوك في أوقاتِ نشاطك ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبّاً وورُوده خِمْساً وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلّك وكان منك مكانَ بعضك"(٤) ،فضلا عن كون صحبة الكتاب منزهة لصاحبها عن كثير من العيوب الاجتماعية ، إذ يكفي الكتاب فضلا :"منعُه لكَ من الجلوس على بابك والنظرِ إلى المارَّةِ بك مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوقِ التي تَلْزَم ومن فُضولِ لنظَر ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك ومِن ملابسةِ صغارِ الناس وحضورِ ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديَّة وجَهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمةُ وإحرازُ الأصل مع استفادةِ الفرع ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة وعن اللعب وكلِّ ما أشبهَ اللعب.. ."(٥)

---

(١) كتاب الحيوان: ١/ ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٨ – ٣٩ .

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤١ / ٤٢ .

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٥٠

(٥) المصدر نفسه: ١ / ٥١ .

وللجاحظ في مقدمته فقرات أخرى تدخل في هذا الإطار لم ننقلها تجنبا للإطالة لكنها تدور حول التميز الاجتماعي للكتاب المتمثل في امتلاكه المزايا وخلوه من العيوب [١].

ب. **المزايا المعرفية** : يولي الجاحظ هذا النوع من المزايا أهمية خاصة ، لأنها في رأيه تعطي الكتاب أفضلية كبيرة بوصفه الوسيلة الأكثر كفاءة في تداول المعرفة ، في مقابل الوسيلة الأخرى المتوافرة في عصره وهي المشافهة .

ومن أهم مزايا الكتاب المعرفية جمعه بين فضيلتين هما: بساطة الماهية ، والتفوق في الانجاز ، فالكتاب يحمل صفات تجعله متيسرا سهل المنال وهو مع اتصافه بهذه الصفات قادر على ان يقدم لقارئه مقدارا من المعرفة يجعل الكتاب الوسيلة الأكثر فاعلية بين وسائل كسب المعرفة ونقلها للآخرين، وعن هذا يقول الجاحظ : "ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه ورُخْص ثمنه وإمكانِ وُجوده يجمَعُ من التدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة ومن آثارِ العقولِ الصحيحة ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة ومِنَ الحِكَم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارِبِ الحكيمة ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية والبلادِ المتنازِحة والأمثالِ السائرة والأمم البائدة ما يجمَعُ لك الكتابُ"[٢]، ومن الواضح هنا انه يعد الكتاب الوسيلة المثلى لجمع ضروب متنوعة من المعرفة، ويضيف إليها قوله : "وعرفت به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر"[٣] فهو يعد الكتاب مانحا سمحا للمعرفة يعطيها للقارئ بيسر، على خلاف التعلم من الرجال وما يرافقه من مشاق يتجنبها المتعلم باللجوء الى الكتاب ، الذي يمنح المتعلم ميزات تتمثل في :" السلامةِ من الغُرم ومن كدِّ الطلب ومن الوقوفِ بباب المكتسب بالتعليم ومِن الجُلوس بين يَدَيْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقاً وأكرمُ منه عِرْقاً ومع السلامةِ من مجالَسَة الْبُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء"[٤].

٢. **أفضلية الكتابة بالإحالة الى المرجعيات :**

لتحقيق هدف مقدمته في رفع الكتابة فوق وسائل البيان الأخرى يحرص الجاحظ على كسب المتلقي فيعتمد على تقنية الإحالة الى المرجع فيجعل معززات آرائه نابعة من مرجعيات تحمل قدرا من القبول المتفق عليه لدى المتلقين ومنها :

أ. **المرجعيات الدينية** : يُلحظ أن الجاحظ يفيد من الإحالة إلى القرآن الكريم والحديث النبوي كثيرا ولاسيما عندما يريد أن يعزز وجهة نظر معينة ، فنراه في كتاب البيان والتبيين يعدد

---

(١) ينظر: كتاب الحيوان : ١/ ٥٠ - ٥١ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٥١ .

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٥١ .

وسائل البيان الخمس فيشرح ويبين طبيعة كل منها ، حتى إذا وصل الى الخط وظف في بداية حديثه عنه نصوصا من القرآن الكريم . وهذا ما لم يفعله مع سائر وسائل البيان[١]. ، ومن الواضح أن هذا الأمر يكسب آراءه في الخط مزيدا من القبول . وتتكرر هذه الظاهرة في مقدمة كتاب الحيوان ، إذ يذكر أن للخط ارتباطا وثيقا بالدعوة إلى الله تعالى ، ويستشهد على ذلك بمراسلات النبي صلى الله عليه وسلم التي دعا فيها ملوك الأرض إلى الدخول في الإسلام ، ثم يقول أن النبي لو شاء أن يستغني عن الكتابة ويختار التبليغ الشفاهي لأمكنه ذلك ،" ولكنّهُ عليه الصلاة والسلام عِلم أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال وأليق بتلك المراتب وأبلغُ في تعظيم ما حواه الكتاب "[٢] . والنص مفتوح على قراءة أكثر عمقا تفترض أن الجاحظ هنا يؤصل لمبدأ يمكن أن يتبناه كل صاحب دعوة دينية كانت أو سياسية ، تأسيا بالرسول ﷺ الذي علم أن الكتابة تفضل على المشافهة عند قيام رسول مبلغ ينوب عن صاحب الدعوة ربما لأن الابلاغ الشفاهي للرسالة يقتضي ضرورةً حضورا ماديا لحامل الرسالة ، وربما ينتج ذلك الحضور في مواقف معينة تأثيرا سلبيا على الهدف من الرسالة ، ولاسيما في مثل رسائل الدعوة التي تقتضي أن يكون حضور صاحب الدعوة الأصيل مغلبا على حضور حامل الرسالة ، وهذا الهدف يحققه الكتاب لأنه يُغيِّب حامله على نحو فعال ، ويستحضر مرسله في لحظة القراءة ، ومن ثم فان استحضار هذه المعطيات يفضي بنا الى ان الرسالة المكتوبة تتفوق على الشفاهية في هذا المجال ، وبعد استشهاده بمكاتبات الرسول (ﷺ) يثني بإجمال على رسالات الله سبحانه التي أودعها في كتب مرسلة إلى الخلق لأنه تعالى علم بحكمته أن سبيل الكتاب "أتم وأكمل ، وأجمع وأنبل"[٣] .

ب. المرجعيات الاجتماعية : مما يدخل في هذا الجانب إحالته إلى أقوال مأثورة تناقلتها العرب، ففي فضل الخط والكتاب، فلا خلاف على ان السابقين قد علموا فضل العلم ومنزلته، وأدرك بعضهم أن الكتاب هو الوعاء الأمثل الذي يحفظ العلم ، لذلك يوصي أحدهم أولاده : "يا بني لا تقوموا في الأسواق إلا على زراد أو وراق"[٤]، وهذه الوصية على قصرها تنقل لنا نظرة صاحبها إلى المجتمع الذي تمثل الأسواق صورة مصغرة له ، إذ يدفع أبناءه الى الترفع عن الوقوف في الاسواق الا سعيا للوصول الى مطلبين هما القوة أو العلم، وما صنعتا الزرادة والوراقة إلا وسائل لتحصيلهما. أما ما سوى ذلك من مهن وصناعات وحاجات يطلبها الناس في الاسواق، فإن قيمته تنحط عن قيم الصنعتين المذكورتين وعن محصول كل منهما.

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ٢٠ .

(٢) كتاب الحيوان : ١/ ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٩٨ .

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٥٢ .

هذا فضلا عن أن مصاحبة الكتاب صارت من الصور التي ألفها المجتمع واكتسب المتصف بها صورة ايجابية ، وقد التقط الجاحظ في هذا المجال مقولة لأبي عمرو بن العلاء يقول فيها :" ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغُ اليد إلاّ اعتقدتُ أنَّه أفضلُ منه وأعقل"(١)، والنص واضح الدلالة ؛ إذ يصرح فيه أبوعمرو بن العلاء أن الكتاب قد صار مظهرا من المظاهر التي تضفي على صاحبها منزلة ، وتمنحه قبولا لدى الناس، وان لم يكن حاله معلوما على وجه اليقين .

وفي السياق عينه ينقل في المقدمة حادثة وشاية اتهم فيها قوم يتضح في ما بعد أنهم كانوا يتدارسون كتابا لم يفصح الراوي إلا عن كونه (شعرا) ، ولكن جلوسهم هذا المجلس زكاهم ومنعهم من الوقوع في دائرة المحاسبة أو العقاب ، فيقول صاحب الرواية وهو أبو عمرو بن العلاء بعد انكشاف حال هؤلاء "والله لا أكشفُ فتىً أصحابُه شيوخ وفي يده دفترُ علم ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّاء"(٢) ومن الواضح في كلتا الروايتين السابقتين أن الجاحظ قد تعمد أن يجعل محتوى الكتاب مجهولا ؛ ليقنع القارئ أن الكتاب أيا كان محتواه يمتلك منزلة تزكي حامله وقارئه ، وتضفي عليهما منعة لا تضاهى ولو كانا متهمين بأقسى التهم .

الثقافة والسياسة

وإذا كان للكتاب والحقل الذي ينتمي اليه (الثقافة) هذه السلطة التي رأينا فإن الجاحظ يجعل هيبته تمتد لتبرزه ندا لسلطة السياسة يضاهيها ، بل يفوقها في الفاعلية ، وذلك في مقارنة غاية في الذكاء أذ يصف أحد أعلام عصره قائلا "ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمْرته فرأيتُ السِّماطَين والرجالَ مُثُولاً كأَنَّ على رؤوسهم الطير ورأيتُ فِرْشَتَه وبِزَّته ثم دخلتُ عليه وهو معزول وإذا هو في بيتِ كتبِه وحوالَيه الأسفاطُ والرُّقوق والقماطِرُ والدفاترِ والمَساطر والمحابر فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ ولا أهيبَ ولا أجزَل منهُ في ذلك اليوم "(٣) ، والنص على قصره يثير قضية في غاية الأهمية والخطورة ، إذ يصرح فيه الجاحظ بأن الثقافة تعلو على السياسة وتَفْضُلُها ، ومن ثم فإن النص يحمل في طياته وجهة نظر كاتب تمرد على السلطة والمنصب وأعلن الزهد فيهما كما نرى في سيرته(٤) ، كما يمكن ان نستشف منه

(١) كتاب الحيوان : ١ / ٦٠ .
(٢) المصدر نفسه: ١ / ٦١ .
(٣) المصدر نفسه: ١ / ٦١ .
(٤) ينظر: الجاحظ معلم العقل والأدب ، شفيق جبري :٤٠؛ وينظر: الجاحظ منهج وفكر ، داود سلوم : ١٢.

وجود نوع من الصراع بين السلطتين السياسية والثقافية يقف الجاحظ فيه مع الثقافة ولاسيما في النص السابق فهو لا يكتفي بتفضيل اسحق المثقف على اسحق السياسي بل يقدم لتفضيله علا فيقول :" لأنّه جمعَ مع المهابَة المحبَّة ومع الفَخامة الحَلاوة ومع السُّؤدَد الحِكْمة."[١]وهذه العلل في رأينا لا تقل عن وجهة النظر التي سبقتها خطورة ، إذ يعرض فيها ثنائيات (المهابة / المحبة) ، (الفخامة / الحلاوة) ، (السؤدد / الحكمة) ، ومن معرفتنا بأن اسحق قد انتقل في نص الجاحظ بين صورتي (السياسي / المثقف) نفهم أنه في حاله الأولى كان يجمع صفات (المهابة والفخامة والسؤدد) ، وحين انتقل إلى الحال الثانية جمع إلى تلك الصفات (المحبة والحلاوة والحكمة) وهي الصفات التي اكتسبها من مجلسه بين الكتب وأدوات الكتابة ، والتي جعلت حاله بوصفه مثقفا أجل في نظر الجاحظ من حاله بوصفه سياسيا ، ولو شئنا أن نوغل في ما سكت عنه النص أو عرض به تعريضا ، فإن المقارنة قابلة للتعميم ، ففي الوقت الذي تعلي فيه من شأن المثقف ، فإنها تجعل منزلة السياسي على النقيض من ذلك ، مما يعكس حالة من القطيعة مع السياسة والاتصال بالعلم والثقافة ، تمثلها الجاحظ ونقلها إلينا في هذه المقارنة البارعة على مستويي محتواها وصياغتها .

الوظيفة النفسية للكتابة

تنبه الجاحظ في مقدمة كتابه إلى ان للخط وظائف قد لا يفطن إليها الكثيرون ، وهي تضيف إلى منزلة الكتابة إضافات تعزز وجهة نظره في الإعلاء من شأنها في مقابل وسائل البيان الأخرى. وهو يختار في هذا المجال آيات قرآنية موضوعها كتابة الملائكة لأعمال العباد[٢]، ثم يقدم للكتابة في هذه الآيات وظيفة تتعدى حفظ الأعمال ؛ إذ يقول :"ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نِسيانٌ ولكنَّه تعالى وعزَّ علم أنّ كتاب المحفوظ ونسخه، أوكد وأبلغ في الإنذار والتحذير ، وأهيب في الصدور "[٣]، وهنا يلتفت الجاحظ إلى أن هذا النوع من الكتابة يتجاوز الهدف منه حفظ المكتوب ، لأنه كما هو معلوم محفوظ بعلم الله تعالى، ويرى الجاحظ أن لكتابة الأعمال هنا وظيفة تتعلق بجعل الأمر أكثر هيبة في نفوس العباد الذين استقر في طباعهم أن التدوين يجعل المدون وثيقة لا تحتمل النقض أو التكذيب، ومن ثم فإن إخبار القرآن الكريم للناس بأن أعمالهم ستكتب عليهم يوجب المخافة والهيبة في الصدور.

ويتطرق إلى ضرب آخر من الخطوط مرتبط بحالات نفسية معينة فيقول : "وخُطوطٌ أخَر تكون مستراحاً للأَسيرِ والمهموم والمفكّر كما يعتري المفكر من قَرْع السنِّ والغضبانَ من

(١) كتاب الحيوان : ١ / ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٦٢ .

تصفيقِ اليد وتجحيظ العين."[١] والعبارة تضع أمام الأنظار وظيفة أخرى للخط يرتبط فيها بحال الإنسان ، ويجعل الخط في هذا النص مشابها لأنماط من السلوك (قرع السن ، تصفيق اليد ، تجحيظ العين) يقترن كل منها بحال معينة (التفكير ، الغضب) ، وتساعد مجموعة من الشواهد على فهم مراده من هذه الفقرة إذ يقدم أبياتا لذي الرمة يصف فيها حزنه على فراق أحبابه ، ويصور نفسه وهو يخط على الأرض بيد ثم يمحو الخط[٢] في صورة يبرع الجاحظ في ايجاد وظيفة لها تتمثل في التنفيس عن المشاعر التي اعترت لشاعر ، فالخط على الأرض الذي يعقبه المحو، ثم تكرار الخط فالمحو مرة أخرى تمثل سلسلة من الأفعال التي لا يمكن أن تحمل على المستوى الوظيفي غير مهمة ترتبط بإخراج ما يعتري الشاعر من حزن في ذلك الموقف ، ثم يعمد الجاحظ إلى توظيف نصوص أخرى مثل (لقط الحصى ، الخط بالعيدان ، النقر على الأرض) وغير ذلك من الأفعال التي تشكل مع الخط الذي ذكره نمطا من الوسائل ذات الوظيفة النفسية.

موضوعية الكتابة وعصبية المشافهة

وسيرا مع التوجه الذي كرس له جل مقدمته يفطن الجاحظ الى قضية أخرى ذات طابع نفسي تشكل علامة أخرى على دقة نظره في ما يعرض له من قضايا ، ولاسيما القضايا اللغوية وعلاقتها بالسلوك الإنساني ، إذ يقول أن مهمة العالِم في المجتمع تتمثل في إرشاد الناس وتبصيرهم وأن ""قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم"[٣]، ويعلل هذا الأمر بأن المواجهة بالدعوة تستدعي خصالا بشرية كحب الظهور والعصبية للرأي ، وتشتد معها شهوة التباهي ويأنف الإنسان عند المواجهة من الخضوع للرأي المقابل ، وكل تلك الأمور تحجب النفس عن التبصر وعن قبول الحق والإذعان له ، وإذا كانت هذه الجوانب السلبية قرينة المشافهة ؛ فأن الإنسان عند التلقي عن الكتاب يبتعد عن ذلك التوتر الذي يظهر عند المواجهة ويكون أقرب إلى الإذعان للصواب إذا جاء به الآخرون لأنه حينئذ "لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله وقد عَدِم من له يباهي ومن أجله يغالب"[٤] ، والذي نراه في هذا النص انه يصح ان يكون موجها إلى وصف سلوك الفئة المثقفة في المجتمع التي يمتلك كل فرد فيها نوعا من الخصوصية التي تجعله معتزا بآرائه ومواقفه ؛ لأن تفوق المشافهة على الكتابة في فاعلية التأثير في المتلقي أمر يقره منطق التواصل ولاسيما عندما يتلقى العامي من الخاص ،

(١) كتاب الحيوان: ١/ ٦٣ .
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٣ .
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٨٤ .
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٨٥ .

أو الإنسان العادي من المثقف ، إذ تقتضي حال المشافهة تأثير الطرف المتفوق (المثقف) على نحو أكبر بكثير من حال القراءة . أما الحال التي وصفها الجاحظ فإنها تكون حاضرة عندما يلتقي الأكفاء ويتناظر الأنداد على نحو يظهر عوامل حب الغلبة والظهور والرغبة في إعلاء الرأي على الرأي المقابل ، وعندها فقط تكون الخلوة مع الكتاب أوجب لحصول التجرد عن الهوى ، ويكون التلقي عن الكتاب أكثر فاعلية من التلقي الشفاهي ، ويظهر واضحا مما سبق أن الجاحظ قد وجد أن الكتابة وسيلة للتخلص من عوامل الهوى والعصبية على العكس من المشافهة التي تنشط فيها هذه الخصال مما يفضي الى البعد عن الموضوعية [١].

ديمومة الخط وآنية اللفظ والاشارة

ويعدد الجاحظ أصناف البيان الخمسة التي أسماها (الخصال) مسميا الأربعة الأولى "اللفظ والخطّ والإشارة والعَقْد"[٢] وواصفا الخصلة الأخيرة التي أسماها في كتاب البيان والتبيين بـ (الحال أو النصبة)، ثم يعلق كل صنف من أصناف البيان بصنف من المتلقين ، فاللفظ للسامع ، والإشارة للناظر والعقد للناظر واللامس، وهو إذ يقتضب في هذا الموضع يختار التفصيل عند تعلق الأمر بالخط فلا يكتفي كما سبق بنوع المتلقي بل يقول :"وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه ممَّا قد أحصاه وحفِظه وأتقنه وجَمعه وتكلف الإحاطة به"[٣]، ولاشك أن إجماله عند وسائل البيان الأولى ، ثم تفصيله عند حديثه عن الخط ، يمثلان دليلا على أن الجاحظ يقدم الخط على ما سواه لما يتمتع به من ميزات لا تتوفر في غيره فهو يُمَكّن من استحضار الغائب من الحاجات ، ووسيلة اتصال بالغائب من (الأعوان)، فضلاً عن كونه خازنا لا ينسى لكل ما يكون الإنسان حريصا على حفظه ، وهذه ميزات لا تتوفر في ما سوى الخط من وسائل البيان .

ولأن الجاحظ قد أدرك "أن الكتابة نظام ذو صورة مرئية ، شبيه بنظام اللغة ذي الصورة الصوتية"[٤] فهو لا يكتفي بما سبق ذكره بل يبدأ بعقد مقارنات بين وسائل البيان من الوجهة الفيزيائية ليثبت في الأذهان قصورها . ولاسيما اللفظ والإشارة أمام الخط ، فاللفظ يحتاج إلى شرط قرب المسافة للحصول على التواصل ذي الدلالة ، فإذا انعدم هذا الشرط وبعدت المسافة بين المتكلم والسامع فإن الملفوظ يتحول ليصير "صياحاً صرفاً وصوتاً مصمَتاً ونداءً

---

(١) ينظر: إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ، د. سميرة سلامي، مجلة التراث العربي، ع ١٠٦ ، نيسان ٢٠٠٧ ، دمشق ، سوريا : ٢٢٤ .

(٢) كتاب الحيوان : ١ / ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٤٦ .

(٤) الرؤية البيانية عند الجاحظ ، ادريس بلمليح : ١٣٢ .

خالصاً ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة وعُطْلٌ من الدَّلالة "[١] ، والجاحظ يبين هنا بوضوح أن بعد المسافة يشكل عائقا يحول دون استكمال الخطاب لتمام غاياته ، إذ يبقى من الخطاب جزء واحد هو التواصل ، ويغيب عنصر التفاهم و تنعدم الدلالة .

أما الإشارة فيذكر منها ضربين : الأول للقريب يوظف فيه المرسل جوارحه الدقيقة ومنها "رَفْعُ الحواجبِ وكسرُ الأجفان وليُّ الشِّفاهِ وتحريك الأعناق وقبْض جلدةِ الوجه"[٢]. والضرب الثاني يأتي مع بعد المسافة بين المرسل والمتلقي ويذكر منه الجاحظ أبعده ، وهو أن "تلوى بثوبٍ على مقطع جبل تُجاهَ عينِ الناظر"[٣]، فإذا بعدت المسافة إلى ما يتجاوز ذلك "ينقطع عملُها ويدرُس أثرها ويموت ذكرها"[٤]، ولم يميز الجاحظ بين هذين الضربين من الإشارة مع أن بينهما فرقا يوازي ما وجدناه يشير إليه عند حديثه عن اللفظ ، فالإشارة القريبة تحوي من الدلالات ما لا تحققه الإشارة البعيدة ، شأنهما من هذه الوجهة شأن اللفظ القريب وما يحققه من إمكانيات التواصل المركب والمعقد والغني بالدلالات ، والصوت المجرد أو الصياح اللذين يحملان من الدلالات أيسرها وأبسطها .

وإذ يفرغ الجاحظ من اللفظ والإشارة في هذه الفقرة ، نراه يتجه صوب وسيلة البيان العليا لديه ، (الخط) إذ يقول : "ويصير بعدُ كلُّ شيءٍ فضَل عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوطِ والكتب فأيُّ نفع أعظمُ وأيُّ مِرْفَقٍ أعوَنُ من الخطِّ والحالُ فيه كما ذكرنا"[٥]، وهكذا فإن الخط يبقى الوسيلة التي لا تعتريها عوامل الضعف الناتجة عن بعد المسافة التي تصيب اللفظ والإشارة ، إذ تبقى فاعلية الخط في تحقيق الدلالة ثابتة لا يغيرها بعد أو قرب المتخاطبين عن بعضهما ، هذا فضلا عن ارتباط اللفظ والإشارة بعامل الزمن إذ لا يبقى لهما وجود بمجرد انقضاء زمن أدائهما ، ويبقى الخط لاستقلاله عن عامل الزمن [٦].

فاعلية القلم وقصور اللسان

عرض الجاحظ آراء قيمة حول الأدوات التي توظفها كلٌ من وسائل البيان مبينا أن القلم أداة الخط ، كما أن اللسان أداة اللفظ ، وهو يصف عمل اللسان وصفا دقيقا يبين فيه

---

(١) كتاب الحيوان : ١ / ٤٧ .
(٢) المصدر نفسه : ١ / ٤٨ .
(٣) المصدر نفسه : ١ / ٤٨ .
(٤) المصدر نفسه : ١ / ٤٨ .
(٥) المصدر نفسه: ١ / ٤٨ .
(٦) تكون الكتاب العربي ، فرانسوا زبال : ١٨٩ .

تعاضد عاملي الصوت وحركات اللسان ، وضرورة اجتماعهما لتحقق عملية الكلام الشفاهي ، ثم يصف عمل القلم على الورق مشبها إياه في رسمه للحروف بعمل اللسان في تقطيع الأصوات ، وإنتاج الحروف وجمعها وترتيبها لتكتمل عملية الكلام [١] ، وتعد آراؤه في هذا المجال رائدة في عصره [٢].

ولا يكتفي بما سبق من مقارنات بين وسائل البيان من لفظ ، وإشارة ، وخط بل يضع أدوات تلك الوسائل بإزاء بعضها ليبين لنا أفضلية بعضها على بعضٍ ، فيقول : "والقلمُ مكتفٍ بنفْسه لا يحتاج إلى ما عندَ غيرِه"[٣] ، ويعلم الجاحظ أن إظهار اكتفاء القلم يتحقق من خلال عرض القصور الذي يعتري (اللسان) بوصفه الأداة المقابلة للقلم ، فيقول :"ولابد لبيان اللسان من أمور منها : إشارة اليد و لولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص " [٤] ، والجاحظ هنا يجعل استغناء القلم (أداة الكتابة) عما سواه من أدوات البيان مزية تجعل القلم مقدما على اللسان (أداة اللفظ) ، إذ يستعين هذا الثاني في الكثير من الأحيان بالإشارة لأداء ما أسماه خاص الخاص ، ونرى أن الجاحظ قد جانب الصواب في هذه النقطة لأن استغناء القلم عما سواه من أدوات البيان لا يعد مزية فهو في الأساس استغناء غير مكتسب للقلم بفعله الذاتي بل هو استغناء تفرضه الطبيعة الفيزيائية للكتابة إذ لا تسمح بإدخال وسائل مساعدة كالإشارة إلى السياق إلا في حدود ضيقة تتمثل في بعض علامات الترقيم كعلامات الاستفهام ، أو التعجب ، وما تضيفه من دلالات إلى النص المكتوب ، هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فإن اللسان عند استعانته بوسائل البيان ولاسيما الإشارة يحقق لنفسه ميزة لا تتحقق للقلم وهي أداء بعض المعاني شديدة الدقة التي لا يمكن تحققها إلا بتعاضد اللفظ والإشارة ، وهي المعاني التي أسماها الجاحظ بـ (خاص الخاص) . ومن ثم فإن (استغناء) القلم بهذا الوصف الذي قدمه الجاحظ قد قصر بالقلم عن بلوغ مرتبة اللسان في أداء الفروق الدقيقة بين المعاني المتقاربة ، تلك الفروق التي يمكن الاقتراب من أدائها شفاهيا عند دخول الإشارة أو غيرها (النبر ، التنغيم،..) بوصفها عوامل مساعدة تقدم للكلام إضافات على مستوى الدلالة لا تتحقق عند محاولة أداء المعنى ذاته باستخدام الخط .

---

(١) كتاب الحيوان : ١/ ٧٠ .

(٢) الرؤية البيانية عند الجاحظ ، إدريس بلمليح: ١٣١ ، ١٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٥٠ .

الحضارة بين الكتابة والمشافهة

وبعد كل ما عرضناه من قضايا تنقل فيها الجاحظ بين مدح للكتاب وبيان لميزاته وتفضيل للقلم على اللسان ، وتوظيف لمرجعيات متنوعة تعلي من شأن الكتابة وتجعلها تحتل المرتبة الاولى من حيث الفاعلية بين مراتب وسائل البيان ، بعد كل ذلك لابد من الوقوف عند قضايا يصرح فيها بالغاية التي صيغت كل الفقرات السابقة من أجل الوصول اليها ، ويبدؤها بتعداد الوسائل التي تعتمدها كل أمة من الأمم التي عرفها عصره "في استبقاءِ مآثرها وتحصين مناقبها على ضربٍ من الضروب وشكل من الأشكال"(١)، موضحا أن العرب اعتمدت وسيلة الشعر الموزون والكلام المقفى ، واعتمد الفرس على البنيان ، ثم يبين أن كتب الحكمة أولى من كلتا الوسيلتين السابقتين (٢) .

ويحاول الجاحظ اثبات أفضلية الكتابة من خلال بيان نقاط الضعف في وسيلتي (البنيان والشعر الموزون) ، مبينا بإجمال سريع أن البناء معرض للهدم والزوال ولاسيما إذا ارتبط بحقبة سياسية أو حضارية قد انقضت "لأنَّ من شأن الملوك أن يطمِسوا على آثار مَن قبلَهمُ وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم"(٣) ، ثم يفصل الحديث عن ضعف المشافهة ولا سيما إذا كانت شعرا من خلال النقاط الآتية:

- ضعف النص الشفاهي أمام الزمن : يبدأ هذه النقطة بفقرة ظاهرها أنه يحدد عمر الشعر العربي ، على أن قراءتها على نحو دقيق تبين أنه يظهر للقارئ أن قدرة الحفظ الشفاهي ضعيفة أمام تقادم الزمن ، ولذلك لم يحفظ العرب لأنفسهم شعرا أبعد من "خمسين ومائةَ عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"(٤) ، وقد وصلت الينا كتب ارسطو وافلاطون وغيرهما على الرغم من كونها كتبت قبل شعر العرب "بالدهور قبلَ الدهور والأحقاب قبلَ الأحقاب"(٥)، .
- انحلال الشعر بالترجمة :يطرح الجاحظ في مقدمته فكرة رائدة عن عدم جدوى ترجمة الشعر فيذكر أن أفضيلة الشعر تقتصر على أهل اللغة التي نظم بها لأنه "لايُستطاع أن يترجَم ولا يجوز عليه النقل ومتى حوِّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ

---

(١) كتاب الحيوان : ١ / ٧١ .
(٢) المصدر نفسه: ١ / ٧٢ -٧٣ .
(٣) المصدر نفسه: ١ / ٧٢ - ٧٣ .
(٤) المصدر نفسه : ١ / ٧٤ .
(٥) المصدر نفسه : ١ / ٧٤ .

التعجب"[١] ، وهذا الأمر يسلم منه النثر لأن كثيرا من تراث الأمم النثري قد ترجم في عصره فلم يتأثر بالترجمة بل ربما زادته الترجمة حسنا ، وقد سلط الباحثون الضوء على موقف الجاحظ من قضية ترجمة الشعر ورأى البعض منهم أنه جانب الصواب في معالجته لهذه القضية ، إذ قرئ قوله :" وأفضيلة الشعر مقصورة على العرب"[٢] بوصفه وهماً وقع فيه الجاحظ ، لأن ظاهر النص يوحي بأنه توهم أن العرب منفردون على غيرهم بمعرفة الشعر[٣]، على أن النص يدلّ بوضوح على أن الشعر فن تقتصر فاعليته على أهل اللغة التي كتب بها، وليس فيه ما يشير الى انفرادهم بمعرفة الشعر عما سواهم من الأمم كما يشير د. إحسان عباس الذي قرأ النصوص المتعلقة بترجمة الشعر من وجهة أخرى تمثلت في كونها جزءاً من سعي الجاحظ نحو الدفاع عن العربية وبيان خصوصيتها[٤] .

وختاما نجد أن الشاغل الأساس للجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان تمثل في دعوة العرب الى تبني الكتابة بديلا عن المشافهة ضمانا لديمومة تراثهم ، ومن ثم التحول من الشعر الى النثر وسيلةً لتناقل ذلك التراث وذلك لضمان دقته وسلامته متى ما تحول من العربية الى اللغات الأخرى ، ولعل مسألة الانتقال من الشعر الى النثر تمثل ابرز الأدلة على سعيه الى جعل مشروعه ذا صبغة حضارية ، لأن اعتماد النثر وصلاحيته للترجمة أمران يرتبطان باتجاه ذهن الجاحظ الى نقل التراث العربي الى الحضارات الأخرى نقلا دقيقا يضمن له التأثير في تلك الأمم على النحو الذي لمسه الجاحظ فيما يتعلق بالتراث العالمي الذي نقله العرب وترجم اليهم وأثر فيهم ، ومن ثم فهو يدعو العرب من خلال مقدمته الى أن يبادلوا الأمم الأخرى التأثير وأن تكون لهم بصمة واضحة في مسيرة الحضارة الإنسانية من خلال التغلب على عاملين هما:

١. (الزمن) الذي أشار الجاحظ الى أثره السلبي في النص الشفاهي ، وذلك على العكس من الكتابة التي وجد أنها تقاوم عامل الزمن ، ومن ثم فهو ينصح العرب بالانتقال من المشافهة الى الكتابة .

٢. (المحلية) ، وعلاجها الانتقال من الشعر الذي يفقد عناصر تميزه بالترجمة ، الى النثر القابل للترجمة ومن ثم النقل الى الأمم الأخرى.

---

(١) كتاب الحيوان : ١ / ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٧٤ – ٧٥ .

(٣) النقد المنهجي عند الجاحظ ، د. داود سلوم: ١٢ .

(٤) ملامح يونانية في الأدب العربي ، د. إحسان عباس : ٢٤–٢٦ .

مصادر البحث

- إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ ، د. سميرة سلامي : ٢٢٤ . مجلة التراث العربي ، ع ١٠٦ ، نيسان ٢٠٠٧ ، دمشق ، سوريا .
- البيان والتبيين ، ١ :٢٠ ، الجاحظ ، تح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ،القاهرة ، ط٧ ، ١٩٩٨م ، ١٤١٨هـ .
- التفكير البلاغي عند العرب ، د.حمادي صمود ،منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١ .
- الجاحظ معلم العقل والأدب ، شفيق جبري :٤٠ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨.
- الجاحظ منهج وفكر ، داود سلوم : ١٢ . دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٩ .
- الرؤية البيانية عند الجاحظ ، إدريس بلمليح: ١٣١ ، ١٣٢، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء المغرب ،١٩٨٤.
- كتاب الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- ملامح يونانية في الأدب العربي ، د.إحسان عباس : ٢٤-٢٦ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،١٩٧٧ .
- النقد المنهجي عند الجاحظ : ١٢ ، د. داود سلوم ، مكتبة النهضة العالمية ، بيروت ، ط٢،١٩٨٦ .

The civilizational act of writing reading in the introduction of (Al-Haiwan) book of Al jahidh

Assist.P. Mohammad Adil Mohammad
University of Mosul - College of Education for Human sciences

Abstract

Researchers agree on the importance of the issue of writing in the introduction of (al_haiwan) book protruding agreement almost complete, and this is what makes the study of this issue and discussed semi- firm in most studies on heritage of Al_ jahidh , and this reading represents an approach to the issue of writing in the introduction of the book (al_haiwan) protruding, and it is analytical critic read for introduction at the negative and positive readings of the case of writing , Al_ jahidh believed that writing should be the first method of Arabic civilization in keeping its heritage, so as to make that heritage able to influence effectively in other civilizations.